الفصل الثامن عشر

مشكلة 2008م

في يوليو/تموز 2007م توجه بوتين إلى غواتيمالا الصغيرة في مهمة شخصية لتبديد زلة دولية يعود تاريخها إلى عام 1980م، عندما استضاف الاتحاد السوفييتي دورة الألعاب الأولمبية الصيفية في موسكو وقاطعتها كثير من الدول الغربية احتجاجًا على غزو أفغانستان. كان جلْب الألعاب ثانية إلى روسيا هاجسًا سعى إليه بوتين بقوة منذ محاولة سوبتشاك التي أرادها لبطرسبورغ في التسعينيات، ولأنه رياضي متعطش تستهويه اللياقة البدنية، ولاعب جودو، ومتزلج، وسباح، فقد أحب دورة الألعاب الأولمبية، ورأى في استضافتها- بصفته قائدًا- وسيلة لتأكيد عودة روسيا إلى مكانها الصحيح على المسرح العالمي.

في عام 2001م حين لم يكن قد مضى وقت طويل على توليه الرئاسة، ذهب في رحلة تزلج إلى سانت أنطون في النمسا، يرافقه أحد القلة في عهد يلتسين، فلاديمير بوتانين، وبوريس نيمتسوف، الليبرالي الذي ألقى في البداية بكل ثقله لدعم بوتين. وعندما رأى بوتين المنتجعات التي تقع في مشهد جبال الألب، أعرب عن أسفه لأن روسيا الجديدة لم يكن لديها أي شيء من هذا، وقال لمرافقيه: «أريد الحصول على منتجع شتوي على النمط الأوروبي»[1]، وكان القلة، المدينون لبوتين بالفضل- سواء كانوا كبارًا أم صغارًا- مجبرون على تنفيذ أمنيته، وفي يناير/كانون الثاني 2006م افتَتَح مصرفُ (روسيا)، ليوري كوفالتشوك، منتجعًا للتزلج يدعى إيجورا على بعد اثنين وخمسين ميلًا شمالي بطرسبورغ على الطريق السريع المؤدي إلى البيت الريفي أوزيرو، الذي يتقاسمه كوفالتشوك وبوتين، مع سبعة مسارات، مع

أن الانحدار العمودي كان قرابة أربع مئة قدم أو أقل؛ وكذلك وضع بوتانين- الذي تسيطر شركته إنتيروس على عملاق المعادن نوريلسك نيكل، وهي التي جعلته على رأس قائمة المليارديرات الروس- مخططات لمشروع طموح جدًّا على سلسلة التلال التي تدعى روزا خوتر في الجبال فوق منتجع سوتشي على البحر الأسود.

وعندما كان بوتين في إجازته التي اعتاد أن يقضيها بانتظام في المنتجع الرئاسي في سوتشي، زار موقعًا نائيًا فوق قرية جبلية بائسة، هي كراسنايا بوليانا، وهناك ولدت أسطورة؛ (فقد شاهد هذا الطريق مصادفة)، وقد أشار أناتولي باخوموف، الذي أصبح لاحقًا رئيسًا لبلدية سوتشي، إلى أن الطريق الذي يتعرج بجوار نهر مزيمتا محفوف بالأخطار، فقال بوتين: «هذا الجمال وهذه الثروات في كراسنايا بوليانا، يجب أن تكون من حق كل الناس»[2].

لم تكن المشاريع بالنسبة إلى بوتين استثمارات من الناحية التجارية الصرفة؛ بل إنها في الواقع كانت مشكوكًا في جدواها الاقتصادية، فقد كانت مساعيه وطنية أيضًا؛ تبغي تحقيق المصلحة العامة التي يعتقد أنه الوحيد الذي يفهمها، وهو من يقرر ذلك. وما إن أصبحت غازبروم في قبضة بوتين، حتى بدأت بإنشاء منتجع مماثل في واد مجاور بالقرب من روزا خوتر، وكان المشروعان هما الأساس في محاولة بوتين الجديدة التي سافر من أجلها إلى غواتيمالا ليتقدم بها إلى مندوبي اللجنة الأولمبية الدولية.

قُدِّم عَرْض سوتشي للجنة الأولمبية الروسية في عام 2005م، ولكن على الرغم من ذكريات باخوموف المبجلة، لم تنشأ فكرة تنظيم المباريات مع بوتين؛ فطموحه هذا استحوذ من قبله على قادة البلاد لعشرات السنين؛ ففي أعقاب أولمبياد موسكو، ناقش المكتب السياسي سرًّا، برجاله المسنين في الكرملين، إمكانية عقد دورة الألعاب الأولمبية الشتوية، فاستعرضوا أربعة مواقع محتملة في جميع أنحاء الاتحاد السوفييتي، ثم تبدد الحلم بتعاقب الأمناء العامين في الثمانينيات، ومن ثم وعد البيروسترويكا وما رافقها من اضطرابات[3]. ومن المدن المستعرضة ثلاث: ألمآتا في كازاخستان، وباكورياني في جورجيا،

وتساغكادزور في أرمينيا، وكلها لم تعد جزءًا من روسيا، باستثناء سوتشي، وهو المنتجع المفضل منذ أيام ستالين، لكنه يفتقر إلى أي مرافق حديثة لدورة الألعاب الأولمبية؛ أولها غياب منحدرات للتزلج.

وفي عام 1995م، في أثناء الولاية الرئاسية المضطربة ليلتسين، عرض الروس سوتشي لاستضافة دورة الألعاب الأولمبية الشتوية لعام 2002م، لكن لم ينجح العرض حتى بالوصول إلى القائمة القصيرة، وحاول بوتين مرة أخرى في عام 2005م السعي إلى دورة الألعاب الأولمبية الصيفية، وتنافست حينها موسكو ونيويورك ومدريد وباريس ولندن لاستضافة دورة الألعاب الأولمبية الصيفية عام 2012م، وخرجت أخيرًا في الاقتراع النهائي. وقد شكك تقييم اللجنة الأولمبية الدولية في قدرة روسيا على تنظيم مباريات في عاصمتها؛ فكيف يمكن أن تُهيئ روسيا، خلال عامين، سوتشي، المنتجع المتهالك الذي ليس فيه أي منشأة أولمبية قياسية، لتكون جاهزة لدورة الألعاب الأولمبية الشتوية لعام 2014م؟

سوتشي كانت تنافس سالزبورغ في النمسا، وبيونج تشانج في كوريا الجنوبية، ودخلت التصويت النهائي، بعد أن فقدت بفارق ضئيل العرض السابق، وقليلون من صوَّتوا لسوتشي.

عُقدت الجلسة 119 للجنة الأولمبية الدولية في ويستن كامينو رويال في قلب مدينة غواتيمالا، وكان بوتين قد تدرب على إلقاء خطابه على نحو مكثف، وبلغة إنجليزية أقرب إلى الكمال، وفي الصباح كان المتحدثَ الأول من بين المسؤولين المتقدمين بطلبات نهائية، فبدأ قائلًا: «التجمع الأولمبي في سوتشي سيكون أول مركز عالمي للرياضة الجبلية في روسيا الجديدة»، موضحًا أنه استوعب استعراض المكتب السياسي في الثمانينيات، وعواقب تفكك الاتحاد السوفييتي. «اسمحوا لي أن أشير إلى أن روسيا فقدت كل الملاعب الرياضية في الجبال بعد تفكك الاتحاد السوفييتي، هل تصدقون ذلك؟»، بدا مرتابًا، بل مستاءً من هذا الانعطاف التاريخي القاسي، وسلط الضوء على جمال موقع سوتشي على البحر الأسود، المتاخم لقمم القفقاز، «على شاطئ البحر يمكنكم التمتع بأيام الربيع الجميلة، لكن هناك

في أعالي الجبال يكون شتاء». وتعهد بإنفاق 12 مليارًا لإقامة الملاعب، وهو مبلغ مذهل، يتجاوز ما خططت فانكوفر لإنفاقه في عام 2010م، ووعد أيضًا أن تكون «تجربة آمنة وممتعة، ولا تنسى»، ووعد مازحًا أنه سيخفف الاختناقات المرورية المزمنة في المدينة، ثم أنهى حديثه بالفرنسية الرسمية المتأنقة، شاكرًا اللجنة على النظر في الطلب المقدم.

بعدها غادر الفندق مراهنًا على هيبته وهيبة روسيا كثيرًا في عملية التصويت، لكنه رفض البقاء لحضور التصويت، وكأنه يتوقع أن النتيجة قد لا تكون سعيدة، ويخشى الحرج من أن تحتفي وفود سالزبورغ أو بيونج تشانج بالفوز، فاستقل طائرته الرئاسية عائدًا برحلة طويلة إلى موسكو.

اليوم وقد أصبح بوتين مذمومًا في كثير من الدول الغربية، بعد أن استنكر البلطجة الأمريكية، فإن صوابية موقفه من إراقة الدماء في العراق أكسبته شيئًا من الإعجاب في بعض الأوساط، وهناك من يعتقد أنه كان له دور في التصويت، الذي بدأ حين كان بوتين فوق المحيط الأطلسي[4].

حلت سوتشي في المركز الثاني في الجولة الأولى من التصويت، وحصلت على أربعة وثلاثين صوتًا مقابل ستة وثلاثين لبيونج تشانج، وحصلت سالزبورغ على خمسة وعشرين صوتًا، وخرجت من التصويت في الجولة الثانية. وعندما انتهت الجولة الثانية حصلت سوتشي على أكثر من سالزبورغ في التصويت، وبفارق أربعة أصوات عن بيونج تشانج، ومن ثم فازت روسيا وفاز بوتين. قال جان كلود كيلي؛ بطل التزلج الفرنسي والعضو في اللجنة الأولمبية الدولية، موضحًا بعد التصويت: «كان لطيفًا، تحدث الفرنسية ولم يسبق أن تحدثها، تحدث الإنجليزية ولم يسبق له أن تحدثها. الكاريزما التي تحلى بها بوتين جاءت بأربعة أصوات»[5].

نائب رئيس الوزراء الذي بقي في غواتيمالا، ألكسندر جوكوف، اتصل هاتفيًّا ببوتين على متن الطائرة الرئاسية لإبلاغه باختيار اللجنة، فاتصل بوتين برئيس اللجنة الأولمبية الدولية جاك روج، وشكره على ما وصفه «بالقرار غير المتحيز»، وفي الداخل ارتفعت شعبية بوتين.

وعندما عاد منتصرًا إلى موسكو، نزل من طائرته والتقى جمعًا من الصحفيين في قاعة كبار الشخصيات في مطار فنوكوفو، وصرح قائلًا: «إنه إنصاف لبلدنا من دون أدنى شك». فقط في بلد يائس من اختياره لدورة الألعاب الأولمبية يبدو الحدث غير عادي على الإطلاق. وأعلن جيرمان جريف في مدينة غواتيمالا: «لقد نهضت روسيا من كبوتها!».

ومع حلول الصيف فالخريف، بدأ الخوف يدب داخل جدران الكرملين من أن روسيا دون بوتين قد تصاب بنكسة، وخيَّمت الشكوك على النخبة السياسية والاقتصادية؛ فقد بدأت تلوح في الأفق- وهو في أوج سلطاته السياسية- نهاية ولايته الرئاسية، وتأكيدات بوتين المتكررة بأنه لن يجري تعديلًا على الدستور يتمكن من خلاله من البقاء ولاية ثالثة في النهاية باتت بحكم الأمر الواقع، وقد توصلت النخبة إلى حقيقة غير سعيدة؛ بأن هذه ليست مجرد انعطافات خجولة؛ فقد خلق بوتين مشكلة خاصة به: يريد التمسك الصارم بالقانون، وضمان الانتقال السلس إلى الرئيس الجديد، لكن سيكون هو الوحيد الذي يسيطر عليه. كانت إستراتيجيته استبدادية بلا شك، لكنه سعى إلى غطاء الشرعية، خوفًا من تكرار الثورة الملونة التي يثيرها الأعداء في الخارج، فتدمر النظام الذي أمضى ما يقرب من ثماني سنوات في بنائه.

بدا سيرجي إيفانوف المتسابقَ الأول المفترض في حملة غير معلنة ليحل محل بوتين، يليه ديمتري ميدفيديف، مع أن بوتين بين الفينة والأخرى يلقي بعض التلميحات المغيظة بأن آخرين يمكن أخذهم بالحسبان: ربما صديقه القديم فلاديمير ياكونين في الخطوط الحديدية الروسية العامة، أو حتى- من أجل التنوع- محافظ بطرسبورغ، فالنتينا ماتفيينكو، ولم يجرؤ أحد أن يعلن طموحه لهذا المنصب، الذي يعد اغتصابًا لحق بوتين. شكَّل إيفانوف بهدوء مجلسًا استشاريًّا لإعداد المواقف السياسية[6]، في حين عمل ميدفيديف على (المشاريع الوطنية) التي تؤكد دوره الجماهيري الواضح. كلا الطرفين جمعا أنصارًا غير رسميين ومعارضين في المداولات التي يجب أن تمر من خلال الحكومة، لكن حتى نهاية الصيف، لم يُشر بوتين إلى مرشحه، ولم يكن في عجلة من أمره؛ فوريثه المعين قد يسرق

الأضواء منه ويجعله بطة عرجاء، وهذا ليس غير متخيَّل فقط، وإنما غير مقبول أيضًا. ونتيجة تكتمه أصبحت صفوف البيروقراطيين مشلولة، وغير راغبة في اتخاذ القرارات التي من المقرر أن تستمر إلى ما بعد نهاية رئاسة بوتين، أو تؤثر في مكانها في أي إدارة قادمة[7]، وخلق تكتمه أيضًا توترات خطيرة تسربت بعُوارها إلى الجمهور.

أثار بوتين التكهنات أبعد من ذلك عندما كشف، في 12 سبتمبر/أيلول، عن آخر فصل في مسرحية الديموقراطية الموجهة؛ فقد سار ميخائيل فرادكوف، رئيس الوزراء العملي المخلص منذ عام 2004م، إلى مكتب بوتين في الكرملين والكاميرات تلاحقه، حيث استقال من منصبه على نحو غير متوقع، وقال: «أنا أفهم العمليات السياسية الجارية في الوقت الحالي، أود أن يكون لك مطلق الحرية الممكنة في اتخاذ القرارات»، لم يبدُ بصورة رجل يريد التنحي من مبدأ الإيثار، بقدر ما بدا ممثلًا لم يتمرن على دوره بما يكفي؛ فقد بدا بائسًا ومضطربًا، في حين حاول بوتين أن يبدو مفكرًا ومترويًّا، ثم أجابه: «ربما أنت على حق»، وشكره على خدمته، مع أنه أشار إلى أن بعض الأخطاء قد ارتكبت، وقال من المهم التفكير في كيفية تأثير المرشح الجديد في الوضع السياسي قبل الانتخابات البرلمانية في ديسمبر/كانون الأول، والانتخابات الرئاسية في مارس/آذار. وبعد ساعات قليلة أعلن على نحو غير متوقع الشخص الذي سيخلف فرادكوف: فيكتور زوبكوف.

قرار بوتين لم يفهمه أحد خارج الكرملين، وقليل من تفهَّمه في داخله، حتى سيرجي إيفانوف لم يعرف أنه قادم[8]، فإذا كان بوتين يحاكي النموذج الذي اتبعه يلتسين في تعيين خليفته، فإنه بتعيين رئيس وزراء جديد عشية الحملة الانتخابية الرئاسية يكون قد اختار رجلًا بتصميمه ذي كفاءة متواضعة. فزوبكوف، الذي ولد في الأشهر الأولى من الحرب الوطنية العظمى كان جزءًا من فريق الرجال الذين زوِّرت سنداتهم مع بوتين في بطرسبورغ في التسعينيات، بعد صفقات المقايضة المبكرة التي نتج عنها فضيحة في شتاء عام 1991م. وهو المدير السابق للمزارع الجماعية، وكان قد ساعد بوتين- مستخدمًا نفوذه بين المزارعين الإقليميين- لاستئناف إمدادات الإنتاج للمدينة الجائعة[9]، وأصبح أحد الشركاء المقربين

من بوتين، وتولى مسؤولية تمكين الضرائب في المدينة، وجاء به في وقت لاحق ومعه إيجور سيتشين لإعداد أطروحات في معهد التعدين في التسعينيات، ولحق ببوتين في وقت لاحق إلى موسكو، حيث رأس سبعَ سنوات جهاز الرقابة المالية الروسية الجديدة، وهو القسم الذي فسح المجال له ولبوتين حصريًّا لمعرفة ما يدخل ويخرج من أموال الشركات في البلاد، والمعلومات التي لا تقدر بثمن في تمكين الولاء، ومن ثم الحفاظ على شيء من التوازن بين الإمبراطوريات المالية المتنافسة التي أُسست، وكثير منها مرتبط بالدولة نفسها.

أوضح بوتين في وقت لاحق: «أود أن أؤكد لكم أن فيكتور زوبكوف أساء لهذه الثقة أكثر من مرة»[10]. بعد إعلانه سافر بوتين إلى مناطق تشوفاشيا وبيلغورود ليشاهد كيف تسير (مشاريع ميدفيديف الوطنية) في إحياء زراعة الدولة، تاركًا النخبة السياسية تفكر في مغزى مناورته هذه غير المتوقعة؛ فهل قرر بوتين الوقوف ضد ميدفيديف أو إيفانوف بعد كل شيء؟ هو يريد بالتأكيد الإشارة إلى أن القرار لا يزال مفتوحًا.

في 14 سبتمبر/أيلول قال إن هناك خمسة مرشحين مهمين على الأقل لرئاسة الجمهورية، لكنه لم يكشف عنهم[11].

وبعد يومين من ترشيح زوبكوف الذي صادق عليه بسرعة مجلس الدوما، لم يكن كافيًا لتهدئة الصراع على السلطة الدائر في الخفاء، الذي كان يتكشف طوال عام التكتم الذي فرضه بوتين. هذا الصراع، الذي أصبح يعرف باسم (حرب العشائر)، اندلع بصورة غير متوقعة في 2 أكتوبر/تشرين الأول، عندما اعتقلت مفرزة من جهاز الأمن الفيدرالي بتباهٍ مسؤولًا كبيرًا من وكالة مكافحة المخدرات، الجنرال ألكسندر بولبوف، لدى وصوله إلى مطار دوموديدوفو، ولأن بولبوف سافر بمهمة أمنية خاصة، فقد وقع حين اعتقاله تبادل لإطلاق النار في المحطة.

بولبوف هو أحد قدامى المحاربين المزدان بالنياشين، وشارك في الحرب السوفييتية في أفغانستان، وكان نائبًا بارزًا لفيكتور شيركيسوف، أحد رجال الـ(كي جي بي)، وكان بوتين

قد عرفه في السبعينيات، وبناء على أوامر بوتين كُلِّف بالتحقيق في تهريب مخزن الأثاث تري كيتا الذي استغرق وقتًا طويلًا، وكذلك في قضية ثانية تسمى غراند. وكانت القضية قد بدأت في عام 2000م عندما صادر مسؤولو الجمارك شحنة من الأثاث من الصين، واكتشفوا أن أصحاب تري كيتا قد تهربوا من دفع الرسوم والضرائب بتواطؤ مع مسؤولين كبار في جهاز الأمن الفيدرالي. فلاديمير أوستينوف، النائب العام، أوقف التحقيق، ولكن الجدل لم يتوقف، وترك وراءه على ما يبدو عددًا من الضحايا، منهم يوري شيكوشيكين، النائب في البرلمان الذي كتب عن القضية في صحيفة نوفايا غازيتا. بعد أن طرد أوستينوف، أمر بوتين بمقاضاة أكثر قوة وصلابة، لكن الرجل الذي رَأَس المخابرات الروسية (FSB) أصبح اليوم قيد الاعتقال من قبل الوكالة ذاتها، متهمًا بسلسلة من عمليات التنصت على رجال الأعمال والصحفيين، وبدا منافسو تشيركيسوف وكأنهم داخل بلاط بوتين: الحرس القديم المتحالف مع إيجور سيتشين.

منذ البداية، كان حلفاء بوتين يسعون إلى تغيير التحالفات والطموحات، لكن بوتين كان مضطرًّا إلى إظهارهم موحدين أمام الجماهير. واليوم مع نهاية الرئاسة، تهدد التوترات بالتحول إلى صراعات مفتوحة، ولم تعد مؤسسة سلطة بوتين، من الرجال الذين ثَبَّتهم في جميع أنحاء الحكومة، تبدو قوية كما كانت، وبعد القبض على نائب وأربعة ضباط آخرين من وكالته اضطر شيركيسوف إلى التحدث، ربما لأنه لم يعد قادرًا على الوصول إلى الرئيس، حيث يحول دون الوصول إليه منافسه المتحالف مع سيتشين، العميل المتفاني، وحتى الرومانسي، الذي لا يعتذر عن ماضيه في الـ(كي جي بي)، كتب شيركيسوف رسالة استثنائية مفتوحة على الصفحة الأولى من صحيفة كوميرسانت، يفصِّل فيها ما كان حتى ذلك الوقت مجرد تكهنات وشائعات حول الأعمال الداخلية لكرملين بوتين. وتحدث أن الحرب قد اندلعت في صفوف الأجهزة الخاصة، التي كانت خلاص الأمة ولكنها اليوم تلهث وراء التجارة والربح، واتهم جهاز الأمن الفيدرالي باعتقال نائبه للتغطية على تواطئه في مخططات تري كيتا، وكتب: «لا تحاول أن تكون تاجرًا ومحاربًا في الوقت نفسه»، يخاطب بهذا جميع ضباط

المخابرات السابقين والحاليين في بلاط بوتين؛ «إنه لا يمكن أن يحدث؛ إنه إما - أو»[12]. لا يمكن النصر في صراع ضمن صفوف بوتين؛ لأنها حرب ستنتهي بحلٍّ كامل لكل ما بناه بوتين، والغريب أنه لم يطلق عليها دولة، فقد سماها الشركة.

استمر القتال الضروس طوال فصل الخريف، ولم يستطع بوتين أو زوبكوف السيطرة عليه، وفي نوفمبر/تشرين الثاني، عاد التقرير الذي أصبح في طي النسيان منذ مدة طويلة- أو ربما حُجِب قهرًا- عن مخالفات بوتين في فضيحة تصدير في بطرسبورغ منذ ستة عشر عامًا، عاد إلى الظهور. وبدا أن (حرب العشائر) اليوم ترمي إلى تشويه سمعة بوتين، الذي واجه منذ وقت قريب الاتهامات العلنية الأولى بأنه جمع ثروة لنفسه مستخدمًا أقرب أصدقائه من بطرسبورغ- يوري كوفالتشوك وجينادي تيمتشينكو- واجهات، وانتشرت أيضًا شائعات عن انقلاب عسكري في موسكو، تمامًا كما انتشرت في الصيف الماضي من رئاسة يلتسين، مع أنه من غير الواضح هل كان المقصود هو الإطاحة ببوتين أو إسقاط الدستور وإبقائه في منصبه، فنُشرت مناشدة من أجل الهدوء في صحيفة قومية (زافترا) على صورة رسالة من خمسة مديرين سابقين، أو المديرين الإقليميين من الـ(كي جي بي) السوفييتي، من بينهم فلاديمير كرايوشوف، الرجل الذي قاد الانقلاب الفاشل في عام 1991م؛ كتبوا: «ثقوا بتجربتنا. كارثة كبيرة يمكن أن تحدث»[13].

لم يتحدث بوتين كثيرًا عن الصراع، فقد سعى إلى الحفاظ على التوازن بين الفصائل المتنافسة، مع أن بعضهم يشتبه في أنه وراء هذا الصراع للحفاظ على سلطته في نهاية المطاف[14]، فقد انتقد شيركيسوف لِبثِّه «هذه الأنواع من المشكلات»، لكن مضى في توسيع سلطة وكالة مكافحة المخدرات التي يديرها شيركيسوف[15]، واحتفظ لنفسه أيضًا بالخطط النهائية للخلافة، في انتظار نتائج الانتخابات البرلمانية في أوائل ديسمبر/كانون الأول.

الانتخابات الروسية أصبحت شأنًا مفككًا اليوم، تسيطر عليها السلطة المركزية بكل دقة، وتفتقر إلى المنافسة الحقيقية وعنصر التشويق فيها؛ إذ إن حزب السلطة (روسيا

المتحدة) حاز كل مزايا موارد الكرملين لنفسه، تاركًا للمعارضة المتسامحة؛ من شيوعيين وقوميين وديموقراطيين وليبراليين، وحزب جديد يرأسه أحد الحلفاء السياسيين لبوتين من بطرسبورغ، روسيا فقط- قليلًا من الأكسجين كي تتنفس.

نقاد بوتين الليبراليون والديموقراطيون، الذين يقودهم اليوم رئيس وزراء بوتين السابق، ميخائيل كاسيانوف، وبطل العالم السابق في الشطرنج غاري كاسباروف، شنوا احتجاجات حادة، لكنها غير عملية، لكونهم هم ومرشحين آخرين محتملين كانوا غير مؤهلين للاقتراع، بذرائع بيروقراطية. والذي لم يواجه عقبات إدارية كان أندريه لوجوفوي، والذي يغمره الفرح لسوء سمعته بصفته قاتلًا مشتبهًا فيه، وقد انضم إلى لائحة مرشحي الحزب الليبرالي الديموقراطي، مؤكدًا لنفسه مقعدًا في مجلس الدوما، ومن ثم الحصانة من الملاحقة القضائية (التي بدت ضرورية في ظل رفض روسيا تسليمه).

بالنسبة إلى بوتين يمثل قادة المعارضة الجامحون مؤامرة ضد روسيا نفسها، وقد أثبت كاسباروف، الذي تقاعد من الشطرنج عام 2005م ليتفرغ لتخفيف قبضة بوتين على السلطة، أنه سيف المبارزة المثالي، وقد اعتقل لتنظيمه مسيرات احتجاج في موسكو، وبطرسبورغ، وغيرها من المدن، في نهاية الأسبوع الذي سبق الانتخابات البرلمانية، وحكم عليه بالسجن خمسة أيام، وعندما هتف كاسباروف، وهو متعدد اللغات، شيئًا باللغة الإنجليزية وضعوه بخشونة في حافلة للشرطة، وكانت ردة بوتين، الذي أُعجب ذات مرة بانتصار هذا البطل الشاب في عام 1985م، ساخرة، فقال: «عندما اعتقل السيد كاسباروف لماذا صرخ باللغة الإنجليزية بدلًا من اللغة الروسية؟»، سأل مجلة التايم، التي اختارته- على الرغم من تشوُّه سمعته داخل الغرب وخارجه- شخصية العام. «فقط فَكِّر في ذلك، كل هذا الهجوم غايته بلدان أخرى بدلًا من الشعب الروسي، وعندما يعمل السياسي لحشود من دول أخرى بدلًا من الشعب الروسي، فإنه يقول لك شيئًا. إذا كنت تطمح إلى أن تكون قائدًا في بلدك، فكرمى لله تكلم لغتك الخاصة»[16].

بوتين لم يكن قد انضم إلى حزب السلطة (روسيا المتحدة)، لكن مع اقتراب الانتخابات البرلمانية، فقد تربع على عرش مرشحيه، وهو ما يمهد الطريق أمامه ليظل زعيمًا للحزب إذا أراد ذلك، وكان بعضهم يعتقد أنه سيتنحى عن الرئاسة لكن سيستخدم قيادة الحزب ليبقى في النهاية في السلطة السياسية.

حملته الانتخابية للحزب لم تكن بأكثر مما كانت عليه في الانتخابات الخاصة به، لكن ما إن رَأس الدولة حتى قدَّم نفسه في نشرات الأخبار المسائية على أنه المنقذ لروسيا. عشية الانتخابات ألقى خطابًا من خلال التلفاز بدا كأنه خطاب الوداع، وقال بأسلوبه الحازم: «لقد فعلنا أمورًا كثيرة معًا؛ فالاقتصاد ينمو باطراد، والفقر في تراجع، ولو ببطء، ونحن عازمون على تصعيد محاربة الجريمة والفساد». وقدَّم اعترافًا نادرًا بأنه ليس كل شيء يسير على ما يرام، لكن انتقل إلى الأساس المنطقي لرئاسته: «دعونا نتذكر ما بدأناه معًا قبل ثماني سنوات، أي نوع من الحفر كان علينا أن ننتشل البلاد منها؟»، أمام روسيا طريق طويل لا بد من أن تقطعه، نعم، ولكن لا يمكن أن نخضع «لأولئك الذين حاولوا عبثًا أن يحكموا البلاد».

كانت الصيغة متناقضة؛ فمن الذي يقصده؛ يلتسين الذي أوصله إلى الكرملين، أم الشيوعيين من الحقبة السوفييتية؟ برنامج الحزب الشيوعي دعا إلى مزيد من العدالة الاجتماعية لأصحاب المعاشات، ولكنه لم يكن على قطيعة حقيقية مع الطفرة الاقتصادية التي شهدتها رئاسة بوتين. كان أعداء بوتين هم (الآخرون) الغامضون، البرابرة المسعورون على الأبواب الذين يقتحمون الجدران بقصد وحيد هو تدمير روسيا. «اليوم هؤلاء الناس يرغبون في إعادة صياغة خطط تنمية روسيا، لتغيير المسار الذي دعمه الشعب الروسي، والعودة إلى زمن الذل والتبعية، والتحلل».

عقب الإدلاء بالأصوات في 2 ديسمبر/كانون الأول، فاز حزب روسيا المتحدة رسميًّا بـ 64 في المئة من الأصوات، على الرغم من أن عددًا قليلًا يعتقدون في صحة رصيده أو أنه ما زال كما كان من قبل، وكان الإقبال واسعًا على نحو مثير للريبة في بعض المناطق، ومع

ذلك لم ينزل أحد إلى الشوارع- كما كان الحال في أوكرانيا- للمطالبة بإعادة فرز الأصوات أو إعادة التصويت. واليوم، كما حذر كاسباروف في حملته الانتخابية، يستحيل الطعن في الآليات القانونية التي كفلت انتصارًا محتومًا. الأطراف الأخرى من الأحزاب الأخرى بقيادة الشيوعيين تراجعت كثيرًا، على الرغم من أن حزب الديموقراطيين الأحرار أبلى بلاء حسنًا ليفوز أندريه لوجوفوي بمقعد. وبعد يوم من التصويت أعلن بوتين أن النتيجة تشير إلى نضج الديموقراطية في البلاد.

بقي للانتخابات الرئاسية اليوم أشهر فقط، ولا يزال مستقبل بوتين غير واضح، حتى لأقرب المقربين إليه. وهو الآن يواجه اختيارًا مصيريًّا لسيرته السياسية، وأعظم مشروعية له- بعد غزو الشيشان، والازدهار الاقتصادي، والفوز بدورة الألعاب الأولمبية- ستكون انتقال السلطة الذي لم يحدث في تاريخ روسيا منذ مدة طويلة، إلا في عهد بوريس يلتسين الضعيف، وقد تنحى عن منصبه طوعًا، واليوم يقف بوتين في مفترق الطرق نفسه.

بوجود أغلبية دستورية مذعنة يمكنه بسهولة، حتى في تلك الساعة المتأخرة، أن يبقى في منصبه من خلال إعادة النظر في الدستور، وكانت الاحتجاجات في روسيا نادرة، حيث ظلت شعبيته عالية على نحو مدهش، والتنديد الذي سيوجهه بالتأكيد المجتمع الدولي، لن يؤدي إلا إلى تأكيد دعواه بأن أعداء بلاده رفضوا قبول قدرها بصفتها قوة مستعادة؛ أو أنه قد يسلم السلطة لزعيم جديد ويتقاعد، كما فعل يلتسين قبل ثماني سنوات عندما سلمه المهمة على نحو غير متوقع- «اعتن بروسيا»- بعد أن حقق إنجازات تتجاوز توقعات أي شخص في ذلك الوقت.

كان ذلك بعد ثمانية أيام من الانتخابات البرلمانية، وقبل ثلاثة أشهر تقريبًا من الانتخابات الرئاسية، عندما حسم بوتين أمره أخيرًا بشيء من فصلٍ مسرحيٍّ سياسي قبل عطلة الشتاء الطويلة. في 10 ديسمبر/كانون الأول انضم زعيم حزب روسيا المتحدة، بوريس جريزلوف، لقادة ثلاثة أحزاب أخرى في مكتب كرملين بوتين، وكانوا قد تداولوا

المرشحين المحتملين لأعلى منصب في البلاد، ثم أخبر جريزلوف بوتين أنه يريد أن يناقش معه بالتفصيل توصياتهم. بدا الاجتماع تشاوريًّا، لا إقرارَ أمرٍ اتخذه بوتين من قبل، وكانت السياسة المتبعة أشبه بفن أدائي بممثلين غير محترفين. أوضح جريزلوف لبوتين أنه وقادة الأحزاب الآخرين أجمعوا على اختيارهم: لا إيفانوف ولا زوبكوف ولا أي من المرشحين الآخرين الذين لم يكشف عن أسمائهم، ويزكيهم بوتين نفسه، وإنما الرجل الذي بدأ يخبو نجمه في العام الماضي: ديمتري ميدفيديف، الذي يعمل اليوم بإخلاص مع بوتين منذ سبعة عشر عامًا[17].

حدث أن كان ميدفيديف من بين الحضور عندما تراجعت كاميرات التلفاز فجأة لتركز على بوتين، ثم تحولت عنه باتجاه ميدفيديف بجهل مختلق.

> «دميتري أناتوليفيتش، هل تشاوروا معك على ذلك؟».
>
> أجاب: «نعم»، كان يؤدي دوره بكل إخلاص وظيفي لا يختلف عن غيره. «كانت هناك مشاورات أولية وكانت إيجابية، وسنواصل هذه المناقشات اليوم وغدًا».

أظهر بوتين استياءه من وجود «كثير من الأحداث السياسية التي حُشرت في مدة قصيرة من الزمن»، قبل حلول العام الجديد، «لكن الحياة يجب أن تستمر، ويتطلب القانون أن نبدأ حملة الانتخابات الرئاسية»، بدا هادئًا كما لو أن الانتخابات واجب لا بد منه. وبدلًا من إعلان وريثه بصراحة، كما فعل يلتسين، أراد بوتين أن يخلق انطباعًا بأن خياره جاء بموافقة «طيف واسع من المجتمع الروسي»، ممثلًا في قيادات الحزب في هذا الحيِّز، فهو يريد- ومقاليد السلطة في يديه- أن يحافظ على التظاهر بصيغة الخيار الجمعي، وهي الديموقراطية (المدارة)، وليست أمرًا سلطويًّا. مع كل تهديده ووعيده، وسخرية الغرب السوداء منه، لا يزال يحاول التحقق من صحتها، بحيث يكون انتزاع السلطة أمرًا غير دستوري، ومن ثم فقد سعى، بعقليته القانونية، إلى وسيلة يضمن فيها خلافته من داخل حرفية القانون الصارم، إن لم يكن من روحه.

بين عشائر الكرملين، بدا ميدفيديف الخيار الأقل مدعاة للانقسام، وهو المقبول لدى مختلف الفصائل المنضوية تحت سلطة بوتين، ربما باستثناء سيرجي إيفانوف وإيجور سيتشين[18]، ولم يُنظر إليه على أنه يمثل تهديدًا خطيرًا لأي منهم، على الأقل لبوتين نفسه. كان حلفاء ميدفيديف في الحكومة من (الليبراليين) و(الإصلاحيين)، لكنه لم تكن عنده قاعدة للسلطة خاصة به.

كانت عملية انتقال السطلة، التي أدارها بوتين في نهاية رئاسته، معقولة في دولة عظمى ناشئة، ولكن حتى ذلك الوقت لم يكشف عن مصيره هو. والفصل الأخير من مسرحه السياسي جاء في اليوم التالي، حين خاطب ميدفيديف الأمة على أنه رئيس مفترض قادم من أجل الاستقرار، وفي حال انتخابه، فسيرشح رئيسًا للوزراء... الرئيس فلاديمير بوتين، وباتت تلك الترتيبات تُعرف (بالترادفية)، وطمأنت أولئك الذين كانوا قلقين كثيرًا من رحيل بوتين في الكرملين، أنه بعد ثماني سنوات من رئاسة الدولة، لن يغادر بوتين السلطة.

في 11 أبريل/نيسان 2008م، وقبل أسابيع قليلة من تنصيب ديمتري ميدفيديف رئيسًا للبلاد، نشرت صحيفة شعبية جديدة نسبيًّا، هي موسكوفسكي كورسبوندنت، مقالة قصيرة تجرأت على اختبار حدود الحقبة السياسية التي يأمل كثيرون أن يقودها الرئيس الجديد. المقالة كتبها الصحفي المخضرم سيرجي توبول، وتتألف من 641 كلمة، وكانت لهجتها تخلو من الابتذال والافتراءات، بل إنها كانت متعاطفة عندما وصل الأمر إلى مسألة الحياة الخاصة لبوتين. لم تكن صحيحة تمامًا، لكنها كشفت السرية التي كانت تلف حياة بوتين الأسرية مدة ثماني سنوات، وحملت عنوان: (**متلازمة ساركوزي**)، في إشارة إلى طلاق الرئيس الفرنسي الأخير وزواجه من زوجته الثالثة، مغنية البوب كارلا بروني. حياة بوتين الشخصية- كما كتب توبول- كانت حياة معكوسة؛ فقد ظل متزوجًا خلال ولايتَيه الرئاسيتين، ولكن اليوم مع تنحيه عن أعلى منصب «ثمة قليل ما يربط الزوجين»؛ و(التسريح)- كما وصفه توبول- يُعتقه اليوم «ليبحث عن وقت يحسم به أموره الشخصية».

ثم جاءت القنبلة المفترضة بعد أربع فقرات في المادة: انفصل الزوجان سرًّا في فبراير/شباط، وفي يونيو/حزيران خطط للزواج ثانية بحسب (مصادرنا)، وكانت العروس ألينا كابابيفا، بطلة العالم في الجمباز الإيقاعي، حائزة الميدالية البرونزية في دورة الألعاب الأولمبية في سيدني عام 2000م، والميدالية الذهبية في أثينا بعد أربع سنوات. لم تكن كابابيفا قد بلغت الخامسة والعشرين من عمرها، وكانت إحدى المشاهير الأكثر جاذبية في روسيا، وبحلول عام 2001م، مع اعتزالها الحياة الرياضية، أصبحت الوجه الجماهيري للحزب السياسي الذي أصبح حزب روسيا المتحدة. وظهرت في انتخابات ديسمبر/كانون الأول عام 2007م مرشحةً على قائمة الحزب، وجاء تجنيدها جزءًا من محاولة جعل الحزب أكثر جاذبية، وحصلت على مقعد في مجلس الدوما عندما اكتسحت الأصوات.

وعلى الرغم من أنه بقي تحت نظر الجمهور ثماني سنوات، فقد احتفظ بوتين بتفاصيل حياته الخاصة من أية معاينة أو مناقشة عامة، وابنتاه خصوصًا كانتا تتواريان في عالم أمني مستور منتشر، خَلَقه خوف والدهما وجنون عظمته، حتى إنه قال مرة لصديقه القديم، سيرجي رولدوغن، الأب الروحي لماشا: «أخذت زوجتي وطفلتيَّ بعيدًا وخبأتهم»[19].

في البداية، حين ضربت الحرب في الشيشان قلبَ موسكو، خشي بوتين على أمنهن، وقليل من تساءل عن دوافعه. وخلافًا لأطفال الروس الآخرين من السياسيين ورجال الأعمال، لم تستخدم بنات بوتين مزاياهن لتعزيز حياتهن المهنية، أو للبحث عن شهرة؛ فقد اختفتا ببساطة، وقبلتا حياة مريحة وإن كانت مقيدة، بعدم الكشف عن هويتيهما. وباستثناء المقابلات المبكرة معهما- بهدف تلميع صورته وتصويره على أنه أب شغوف وقاسٍ- لم يكرر توظيفهما مرة أخرى على طريقة السياسيين في أماكن أخرى، ممن يستخدمون أطفالهم دعائم لهم.

أكملتا دراستيهما في عزلة مع معلمين خصوصيين، مع قدر عال من الحراسة الأمنية، وقد تعلمتا كلتاهما العزف على البيانو والكمان، بتشجيع من رولدوغن وبوتين المهتم

بالموسيقى؛ إذ كان رولدوغن يعتقد أنهما يمكن أن تكونا عازفتين محترفتين «إن كان لهما مصير مختلف». وقد درستا في الجامعة نفسها التي درس فيها والدهما تحت أسماء مستعارة، وحتى معارفهما لم يكونوا على علم بعلاقتهما بزعيم البلاد.

مع الوقت، أصبحت علاقة بوتين بهما أكثر بعدًا؛ فقد ملأت أعباء السلطة كل وقته، وذات مرة سجلت الاثنتان قرصًا مدمجًا صغيرًا لموسيقا شملت كونشرتو باخ في بي ماينور، فكان بوتين يستمع إلى الموسيقى ليلًا، ويُسكت أي شخص يعكِّر عليه متعة الاستماع. وبعد أن أصبحتا بالغتين ودخلتا الجامعة لم يعرف أحد خارج أسرتهما عنهما شيئًا.

لم تكن ليودميلا تشعر بالاستقرار المريح أبدًا في الحياة العامة لكونها زوجة سياسي، واقتصر ظهورها على المرحلة الأولى من رئاسة زوجها، إذ أجرت بعض اللقاءات والمقابلات، ورافقت زوجها في زيارات رسمية، فظهرت مع السيدات الأولى في الولايات المتحدة وبريطانيا وأخريات، لكن ضمن الأصول البروتوكولية فقط، ثم بدأ ظهورها يخبو شيئًا فشيئًا.

كانت تشرف على منظمة تدعى مركز تطوير اللغة الروسية، ووقفت نفسها على تعزيز القراءة والتعليم والروابط الموحدة للغة في الوطن الروسي، ولا سيما أولئك الذين وجدوا أنفسهم مهجرين خارج حدود روسيا عندما انهار الاتحاد السوفييتي، وأشار إليهم بوتين في كثير من الأحيان[20]. ثم تبنى بوتين الموضوع بقوة بعد الإهانة التي تعرضوا لها في الثورة البرتقالية في أوكرانيا؛ فأوجد مؤسسة حكومية أسماها (المؤسسة العالمية الروسية) للدفاع عن الشتات، والاحتفاظ بحقوقهم في الوطن الأم، على الأقل من الناحية الثقافية. لم يكن لليودميلا أي تأثير واضح في سياسات زوجها، وحتى في الحياة الخاصة، وقد قال رولدوغن: «لم تكن تتدخل في سياسة بوتين، ولم يطلب بوتين منها ذلك، ونادرًا ما شوهدا في موقف ودي أو حانٍ في الأماكن العامة. وحين يظهران معًا لم يكن يبدو عليهما التوافق، وقد صار ظهورًا أقل في ولاية بوتين الثانية. قد يكونان عاشا حياتهما الخاصة معًا، وتناولا معًا العشاء

مع بناتهما عندما كانوا في المنزل مجتمعين، ونادرًا ما تشاجرا علانية، بحسب رولدوغن، لكن لم يعودا زوجين حميمين.

قبضة الكرملين على وسائل الإعلام، بطبيعة الحال، كان من نتيجتها عدم متابعة حياته الخاصة، حتى الإيجابية منها، وعُدَّت من المحرمات، لا يختلف في ذلك عن معظم القادة الروس والسوفييت السابقين، الذين يصوَّرون- على نحو تقليدي- على أنهم شخصيات بارزة، ومن ثم منعزلة. كان والد الأمة بقدر ما هو والد في عائلته، وهي الصورة التي نحتها الكرملين بلا هوادة.

الفيلم السينمائي الذي ظهر في فبراير/شباط الماضي، كان يبدو أنه محاولة جديدة لتصوير بوتين على أنه زوج مخلص، في وقت كانت فيه الشائعات تثبت ما يخالف ذلك تمامًا، وقد حمل الفيلم عنوان: (**قبلة ليست للنشر**) اقتباسًا من مشهد رجل سياسي بارز يشبه كثيرًا بوتين، يقبِّل امرأة تشبه كثيرًا ليودميلا، أمام مجموعة من المصورين، ويهيب بالصحفيين بعدم نشر اللقاء. المنتجة والمخرجة أولغا زولينا، أصرت على أن الفيلم محض خيال، لكن التفاصيل مستمدة بوضوح من حياة بوتين: خدمته في الـ(كي جي بي) في دريسدن، حادث سيارة ليودميلا، وصعوده غير المتوقع إلى السلطة، وحتى بطل الفيلم حمل اسم بلاتوف، وهو الاسم الحركي لبوتين عندما كان في أكاديمية الـ(كي جي بي)، وهو دلالة معرفية إلى أن حياته كانت مصدر إلهام للمشروع. ولم يبتعد الفيلم عن حياة بوتين إلا في تصوير دور ليودميلا: في الذروة الدراماتيكية كانت تزود بلاتوف بمعلومات معينة عندما تأخر عن المؤتمر الصحفي المهم في الخارج، وتظهر بهذا اتزانها وذكاءها الذي أكسبها حفاوة دائمة من الصحافة. وكان من ضمن تفسيرات الفيلم أنه يهدف إلى «تغذية أوهام المعجبات ببوتين»، وتشير رسالته الأساسية إلى أن المصير السياسي للبلاد يعتمد على استقرار زواج بلاتوف.

الصحفيون الحقيقيون في تجمع الكرملين تعلموا ألا يسألوا ولا يكتبوا عن عائلة بوتين، ومع نهاية ولايته الرئاسية، بات مستحيلًا عدم ملاحظة ما يسميه توبول الشائعات التي نوقشت على نطاق واسع بأنه «ليس كل شيء على ما يرام بين الزوجين»؛ الرئيس والسيدة الأولى، وكتب توبول: «الواقع أن فلاديمير بوتين، مثل أي رجل سليم معافى، لن يبقى غير مهتم بامرأة رياضية جميلة أصبحت معروفة في دائرته الداخلية»، ثم أتى بعد ذلك على (اللغط) عن ارتباطه بغيرها من النساء، ومنهن المذيعة المعروفة لأخبار التلفاز على القناة الأولى، يكاترينا أندرييفا، نجمة كرة السلة السابقة، وألمح إلى الصحفية يلينا تريغوبوفا وقصتها مع بوتين حين اصطحبها إلى مطعم فارغ في سوتشي. أشار التقرير إلى العلاقات الشخصية و(الفضائح) التي ارتكبها قادة آخرون في العالم؛ من ساركوزي إلى بيل كلينتون وفاتسلاف كلاوس رئيس جمهورية التشيك، وأشار إلى أن الشعب الروسي، أيضًا، كان مستعدًّا لقبول طلاق القائد على أنه أمر عادي، بدلًا من الأساطير التي اختلقها الكرملين عن المُواطن القانع.

مثلما كانت مصادر التقرير مزيفة، نفى المتحدث باسم كابابيفا ذلك، والزواج في يونيو/حزيران لم يحدث في الواقع، لكن التقرير خلق ضجة كبيرة في أوساط الصحافة الأجنبية، وروع الصحفيين الروس الذين عرفوا أنه قد ذهب أبعد مما يتجرأ عليه أي صحفي من قبل. نشر المقال على شبكة الإنترنت، التي كانت في ذلك الحين ما تزال خارج سيطرة العقول المدبرة في الكرملين، مختبرًا الدرع الحديدي الذي أُقيم حول حياة بوتين الشخصية. كانت حملة الانتخابات الرئاسية لديمتري ميدفيديف قد وعدت روسيا بانفتاح أكبر، وحرية بفضاء أوسع، وقد نستطيع اليوم التحدث بقضايا كانت خطًّا أحمر فيما مضى.

بعد أسبوع من هدير الشائعات، أصبح من المستحيل على بوتين غض النظر عنها مدة أطول، وكان عليه معالجة المسألة خلال مؤتمر صحفي في إيطاليا، مع سيلفيو برلسكوني، الذي قدم مواد لا تنتهي للصحافة الإيطالية الحرة عن ميوله الشخصية. وكان برلسكوني،

الذي فاز من فوره في الجولة الأخيرة من الانتخابات، يبدي إعجابه الشديد ببوتين وأسلوبه السياسي، وكانت هذه المشاعر متبادلة.

ارتدى بوتين بدلة خاطها خياطُ برلسكوني الخاص، وأصبحا وثيقي الصلة في مجال الأعمال التجارية وعلاقتهما الخاصة، يتفاوضان على الصفقات وتبادل الزيارات والهدايا النفيسة، التي كان من ضمنها السرير ذو الأعمدة الأربعة مع الستائر، الذي كان مخصصًا للقاء برلسكوني مع العاهرة المظلومة باتريسيا داداريو، وقد سماه الزعيم الإيطالي: (سرير بوتين)[21].

في المؤتمر بدأت المراسلة الروسية ناتاليا ميليكوفا، من نيزافيسيمايا غازيتا، التي كانت تعلم أن الشائعات وصلت إلى الصحافة الإيطالية، لكنها ظهرت خائفة بكل الأحوال، بسؤال حول الغرض من الزيارة، ولكنها علقت على الطلاق الذي يشاع، وهل كانت الابنة البكر لبوتين قد انتقلت إلى ألمانيا وتزوجت؟ وبعد أن عزف عن الإجابة برهة من الوقت، أكد أنه لم ينوِ تجنب السؤال الأكثر إثارة. «أول شيء أريد أن أقوله هو الآتي: ليس هناك كلمة حق واحدة في ما قلتِه». كان واضحًا أنه كان على دراية بالتقرير المنشور؛ لأنه ذكر أندرييفا أيضًا، والشائعات عن العلاقات الأخرى، على الرغم من أن المراسلة لم تذكر ذلك، وبعدها حاول أن يلقي الضوء على ذلك، قال: «أعتقد أن أحدًا لن يفاجأ إذا قلت إنني أحب كلًّا منهم، تمامًا كما أحب جميع النساء الروسيات. أعتقد أن أحدًا لن يتأذى إذا قلت إنني شخصيًّا أعتقد أن نساءنا الروسيات هن الأكثر جمالًا والأكثر موهبة، والنساء الوحيدات اللائي يمكن مقارنتهن في هذا الشأن هن النساء الإيطاليات». بعد الترجمة، ذهل الإيطاليون موافقين، كما هز برلسكوني رأسه وأومأ، ثم التفت بوتين واستحال جليدًا: «أنا- بلا ريب- على دراية بالكليشيهات التي يعيشها السياسيون في البيوت الزجاجية، والناس- بطبيعة الحال- من حقهم أن يعرفوا كيف يعيش أولئك المنخرطون بالنشاطات العامة، لكن حتى في هذه الحالة لا بد من وجود بعض القيود».

وتابع: «هناك شيء من هذا القبيل في حياة المرء الخاصة التي يجب ألا يسمح لأحد أن يتدخل بها. وكنت دائمًا أرد بسلبية على أولئك الذين، بأنوفهم المخاطية وخيالاتهم الأيروسية، يتدخلون في حياة الناس الآخرين». ثم غيَّر الموضوع، مشيرًا إلى نمو الاقتصاد في ظل رئاسته، وكانت روسيا قد خفضت عدد الذين يعيشون في فقر مزدوج، والدخول الحقيقية تنمو، وعلى الأقل «لم يسأل أحد عن الشيشان بعد اليوم»، وأثبت جوابه أنه يكشف عن إنجازات عامة هي الأكثر أهمية، وليست حياته الشخصية. وقد هز برلسكوني رأسه حين تحدث بوتين؛ يصادقه على ما يقول، وعندما أنهى صديقه الحديث، وضع كلتا يديه معًا لترسما إطلاق مدفع رشاش، مصوبًا مباشرة على الصحفية الشابة التي طرحت السؤال.

وفي اليوم الذي رجع فيه إلى موسكو، أعلن مالك الصحيفة أنه بصدد إغلاقها، وتحدث عن انخفاض مبيعاتها، لكن لم يصدقه أحد.

عُمق علاقة بوتين مع كابابيفا، أو مع أي امرأة أخرى، سيبقى مجهولًا لأي كان عدا أصدقائه المقربين، لكن كان ثمة تعارف أبعد من التعارف السياسي العابر بين اثنين؛ فقد انتقلت بوضوح إلى دائرة الأصدقاء من بطرسبورغ الذين برزوا خلال ولاية بوتين الثانية. وقبل شهر واحد فقط من ظهور اسمها في علاقة مع بوتين، التحقت بالمجلس الاستشاري لمجموعة الإعلام الوطني التي أُسست حديثًا، وهي شركة قابضة يسيطر عليها يوري كوفالتشوك، الذي توسعت إمبراطوريته المصرفية لتشمل بعض المحطات التلفازية وأبرز الصحف في البلاد.

سيرجي فورسينكو، شقيق وزير التربية عند بوتين، أندريه، ومثله العضو المؤسس في جمعية البيت الريفي أوزيرو، التي كان بوتين عضوًا فيها أيضًا، تولى منصب مدير الشركة، التي استمرت في توسيع حيازتها لوسائل الإعلام لتكون أداة أقوى للدعاية التي تثبِّت سلطة بوتين. إدراج كابابيفا يشير إلى علاقة حميمة مع هذه العصبة، إن لم يكن مع بوتين شخصيًا، حيث تعمقت هذه العلاقة بهدوء خلال رئاسته. فقط في نهاية ولايته الرئاسية، عندما واجه

مشكلة عام 2008م، رُفع حجاب السرية قليلًا، وقد ظن بعضهم أن الشائعات حول علاقتهما قد تكون إحدى سمات الصراع الجارية.

في فبراير/شباط 2008م، عشية انتخابات ميدفيديف، نشر اثنان من نقاد بوتين البارزين، بوريس نيمتسوف وفلاديمير ميلوف، كتيبًا من ست وسبعين صفحة، يذكر بالتفصيل- أول مرة- العلاقات التجارية التي وحدت دائرة بوتين، ومن ذلك الارتفاع المذهل لثروات يوري كوفالتشوك23. وقد شملت المكتسبات التي حصلوا عليها من المجموعة الوطنية للإعلام- كما يروي الكتيِّب- أصول وسائل الاعلام لغازبروم، التي اشتُريت في عام 2005م بـ166 مليون دولار، والتي قدر قيمتها ميدفيديف نفسه بعد عامين بمبلغ 7.5 مليارات دولار. لم يأت الوزيران السابقان، نيمتسوف وميلوف، من فصيل متطرف من المعارضة الروسية، لكن كافحا ليكون لهما تأثير، وكان يأملان أن يشجع الكتيب على النقاش السياسي، على الأقل قبل انتخابات ميدفيديف، وربما استمع ميدفيديف نفسه إلى سلسلة المشكلات التي يريدون تسليط الضوء عليها.

نيمتسوف، الحاصل على الدكتوراه في الرياضيات، شغل منصب حاكم في نيجني نوفغورود، ونائب رئيس الوزراء في عهد يلتسين، وكان من أوائل المؤيدين لبوتين، حتى إنه تزلج معه على جبال الألب النمساوية حيث بزغ أساس حلم سوتشي الأولمبي. أما ميلوف فكان نائب وزير الطاقة في عهد بوتين. وقد تنامت خيبة الأمل عندهما مع الاتجاهات الاستبدادية التي تلت إصلاحات بوتين في وقت مبكر.

الكتيب بوتين: النتائج، تحدى أُسُس خطابات بوتين الوداعية، التي زعم فيها أنه بعث البلاد من رماد التسعينيات، وقد شبَّه نفسه بالكادح (العبد القادس) الذي يعمل مجدفًا على سفينة شراعية كبيرة. اعترف المؤلفان بالارتفاع المذهل لإجمالي الناتج المحلي GDP ومتوسط الدخل، والانخفاض في البطالة والفقر، لكنهما قالا إن معجزة بوتين الاقتصادية

كانت سراب بوتيمكين، وقد جاءت من ارتفاع أسعار النفط الذي غطى على المشكلات الهيكلية والنمو المذهل للفساد.

عندما تولى بوتين منصبه كانت روسيا في المرتبة 82 في القائمة السنوية لمنظمة الشفافية الدولية للدول الأقل فسادًا، وقد انخفضت منذ ذلك الحين- كما كتبا- إلى المرتبة 143، لتصبح في مرتبة دول مثل أنغولا وغينيا بيساو وتوغو. وبعد أن تسبب الكشف عن 90 ألف دولار خلال رئاسة يلتسين بفضيحة سياسية أدت إلى إقالة أناتولي تشوبايس ومساعديه الآخرين، فإن الممارسين اليوم للفساد- كما كتبا- «يسخرون من هذا المبلغ المثير للشفقة، فما يفعله اليوم موظفو الخدمة المدنية من سرقات يقدر بالمليارات، وبعيدًا عن أعين الناس؛ فأصحاب الحصص الكبيرة يتسترون على عشرات المرتشين السريين»، أصدقاء الرئيس بوتين «يختبئون وراءهم. والمعلومات عن هوية المالكين الحقيقيين تحميها بعناية أجهزة المخابرات، وموضوع الفساد لدى المستويات العليا من السلطة يعد من محرمات الكرملين في وسائل الإعلام التي يسيطر عليها».

الكتيب- مثل مقالة موسكوفسكي كورسبوندنت- يسعى إلى كسر شيفرة الصمت التي تسود الكرملين في عهد بوتين، وخصوصًا عندما تشمل أكثر الأجزاء سرية من سيرة الرئيس، ومؤلفاه لم يذكرا فقط بالتفصيل صعود كوفالتشوك، وإنما بحثا في إزالة أصول غازبروم وأرباح رومان أبراموفيتش، والجانب المظلم من أعمال وسيط الغاز في أوكرانيا، روس أوكر إنيرجو، والدمج الماكر للصادرات المربحة لغينادي تيمتشينكو، مؤسس غانفور، الشركة التجارية التي مقرها في سويسرا، فضلًا عن أبراموفيتش، وهؤلاء الأباطرة الجدد أصحاب المليارات الذين ظلوا غير معروفين نسبيًّا طوال ثماني سنوات من رئاسة بوتين للبلاد، وقلما ذكروا في وسائل الإعلام، وعندما يُذكَرون تكون هناك تحذيرات كثيرة لمصادر المعلومات.

شركات تيمتشينكو اليوم تتعامل مع عقود ما يقرب من ثلث صادرات روسيا من النفط، من بينها معظم تلك التي تتعامل بها روزنفت منذ أن استحوذت على أصول يوكوس.

تيمتشينكو ذو الشعر الفضي الأجعد، شارك بوتين الحب لأسواق الطاقة والسياسة، وكذلك الجودو، ولكنه ظل بعيدًا عن الأضواء، وظل مشتبهًا في ماضيه الذي يعود إلى الـ(كي جي بي)، وهو ما أنكره لاحقًا. كان يحمل جواز سفر فتلنديًا، إضافة إلى جوازه الروسي، وعاش في بلدة كولوغني في سويسرا، في دارة (فيلا) مطلة على بحيرة جنيف، حيث التقطت له صور قليلة، ولم يجر إلا قليلًا من المقابلات الصحفية (عندما أجرت معه صحيفة وول ستريت جورنال لقاء بعد أربعة أشهر من ظهور الكتيب، وافق على ذلك بشرط عدم تصويره، وعدم الكشف عن موقع شركته)[22].

نفى تيمتشينكو أن يكون له أكثر من تعارف عابر مع بوتين، وأصرَّ زورًا على أنهما ليسا صديقين، بل ورفع دعوى ضد مجلة إيكونوميست لإشارتها إلى عكس ذلك في مقال بعنوان: (**ضع القليل في راحة يدي**)[23]، ولما صارت ثرواتهم في ازدياد، فقد بات من الصعب على أوليغارشية بوتين أن يبقوا سريين. كوفالتشوك وتيمتشينكو ظهرت أسماؤهما لأول مرة معًا على لائحة فوربس للمليارديرات بعد ظهور الكتيب بشهر واحد، وتبعهما الأخوان روتنبرغ بعد وقت قصير.

ستانيسلاف بيلكوفسكي، الشيطاني الملتحي، والمحلل السياسي الذي يرتدي نظارة طبية، كتب تقريرًا عن (الدولة والقلة) عشية الهجوم على يوكوس، ذهب إلى أبعد من ذلك من نيمتسوف وميلوف؛ إذ ادعى أن تيمتشينكو يعمل بمنزلة وكيل وشريك لبوتين، الذي يملك ما لا يقل عن جزء من غانوفر، إلى جانب أسهم في شركة غازبروم وسورجوت. وقدَّر (مجرد تكهن) أن القيمة الصافية لبوتين بلغت 40 مليار دولار، وهو الرقم الذي يقارب التقدير السري لوكالة الاستخبارات المركزية قبل عام، ربما لأن محلليها كانوا يقيِّمون من المصادر نفسها التي أخذ منها ادعاء بيلكوفسكي[24]. وأصر بيلكوفسكي على أن مصادره كانت من داخل الكرملين، وجمعياته السابقة مع إيجور سيتشين وغيرهم جعلت هذا معقولًا، لكنه اعترف أيضًا أنه ليس لديه أدلة موثقة، ومع أن انتقاداته التي وجهها لبوتين على مر السنين لم تمثل خطرًا عليه، ولكنها أعطت بعض المصداقية لهذه المزاعم.

وردَّ بوتين بشيء من الفكاهة، ثم بازدراء كبير، عندما سئل في آخر مؤتمر صحفي له في أثناء رئاسته- وكان قبل شهر من انتخاب ميدفيديف في مارس/آذار- عن مزاعم أن بوتين هو أغنى رجل في أوروبا؟ أجاب: «نعم هذا صحيح؛ أنا أغنى إنسان ليس فقط في أوروبا بل في العالم؛ أجمَعُ العواطف. أنا غني بشعب روسيا الذي عهد لي بقيادة هذا البلد العظيم مرتين، وأعتقد أن هذه أعظم ثروة لدي»، ثم نفى مزاعم بيلكوفسكي التي قال عنها، بعد قراءتها، إنها «هراء»، وأضاف: «كل ما جاؤوا به حفروه من أنوفهم ولطخوا به أوراقهم».

إذا كانت ذيول الثروة الشخصية لبوتين من المستحيل تتبعها، فإن من الصعب على الكرملين دحض دليل الاتصالات المتشابكة بين دائرته من الأصدقاء، ومنهم كاباييفا.

بعد أسابيع فقط من مغادرة بوتين الكرملين، ظهر اسم كاباييفا على كشف ركاب طائرة خاصة أقلعت من سويسرا إلى براغ ثم إلى سوتشي، الموقع المستقبلي لدورة الألعاب الأولمبية، حيث سينفق بوتين جُلَّ وقته، عقب البدء بتنفيذ عقود بناء المرافق هناك، وكان على تلك الرحلة أيضًا فلاديمير كوزهين، الذي عمل منذ عام 2000م رئيسًا لمكتب إدارة الملكية للكرملين، الإدارة التي عمل فيها بوتين أول مرة عندما انتقل إلى موسكو، إضافة إلى اثنين من رجال الأعمال والمقربين من بوتين: ديمتري غوريلوف، صاحب شركة الإمدادات الطبية بتروميد، ونيكولاي شمالوف، الذي جمع التبرعات لها. الشخصان اللذان بقيا غير معروفين لأكثر من عامين هما شامالوف وغوريلوف؛ فقد كانا مساهمين رئيسين في شركة في الخارج تُسمى (روزنفيست) التي أنشئت بناء على تعليمات بوتين في عام 2005م، ومن بين استثماراتها المفترضة كان بناء دارة (فيلا) ضخمة على ساحل البحر الأسود بالقرب من سوتشي، تشبه- كما وصفها أحدهم- تقريبًا «قصرًا مناسبًا لقيصر»، يحيط به جدار وبوابات أمنية، ويتوسطه شعار الدولة الروسية، ويحتوي على ثلاثة مهابط للطائرات الحوامة، ومبنى للخدمات، وصالة ألعاب رياضية، وصالة جمباز، وبيت ريفي، ومدرج، بالإضافة إلى البيت الرئيس. الطائرة الخاصة التي نقلتهم وفريقًا من ثلاثة فنلنديين من

سويسرا إلى سوتشي في ذلك اليوم من مايو/أيار تملكها إيرفكس أفييشن التي كانت آنذاك مملوكة بالكامل لجينادي تيمتشينكو[25].

أن تطفو على السطح كل هذه المزاعم في نهاية رئاسة بوتين أوجدت توقعات- أملًا غامضًا، حقًّا- بأن التحول السياسي يمكن أن يجعل التغيير ممكنًا؛ إذ إن التقرير الذي أعده نيمتسوف وميلوف فُهم على أنه برنامج سياسي للمعارضة في حملة الانتخابات الرئاسية، التي لم تحدث في الواقع، ويدعو البرنامج إلى الإصلاحات التي وعد بها بوتين ولكنه لم يقدمها: معركة ضد الفساد في صفوف الشرطة والمدعين العامين، وقوانين جديدة من قبل المشرعين تحظر صراعات المصالح ورجال الأعمال، وإضفاء الطابع المهني على الجيش، وبناء الطرق الحديثة، وإنشاء نظام رعاية صحية فاعل بعد أن أسهم غيابه في تراجع ديموغرافي للسكان، وتراجع في متوسط العمر المتوقع للرجال، ومع أنه ارتفع اليوم، فإنه أقل بكثير من مستويات أوروبا أو أمريكا الشمالية. ساجلوا بأن بوتين فكر في رفع أسعار الطاقة التي غذَّت طفرة لا يمكن إنكارها، وخصوصًا في موسكو، التي تلألأت على نحو غير مسبوق.

حتى مع تعيين بوتين رئيسًا للوزراء، اعتقد كثيرون أنه يعتزم في نهاية المطاف التخلي عن السيطرة السياسية لجيل جديد من القادة. ولكن بوجود ميدفيديف في سدة الحكم، يمكن أن يصبح بوتين روسيا دنغ شياو بينغ، إذ يسلم رسميًّا مقاليد الحكم، ولكنه يسيطر عليها من وراء الأستار؛ لضمان تنفيذ سياساته، كما فعل دينغ خمس سنوات أخرى حتى وفاته في عام 1997م، وكان كثير من الناس المقربين من بوتين يعتقدون ذلك، وهو لم يقل لهم خلاف ذلك، حتى ميدفيديف، الذي أمضى ثماني سنوات إلى جانبه في الكرملين.

أعرب ميدفيديف عن المخاوف نفسها التي ذكرها هذان الناقدان بالتفصيل، وأعرب عن اعتقاده بالحداثة، والانتقال إلى سوق ومجتمع سياسي أكثر تحررًا، أو على الأقل قال ذلك. «الحرية أفضل من اللاحرية»، قالها عدة مرات وكررها، لذلك أصبحت شعار رئاسته، كانت كلمة عادية، لكن بعد ولاية بوتين تعد كافية لتبعث الأمل.

عندما انتشرت فضيحة علاقة بوتين بكاباييفا، نفض مجلس الدوما الغبار بسرعة عن التشريعات التي تشدد قوانين التشهير في البلاد، التي تَعُدُّ «نشر المعلومات الكاذبة عمدًا، والتي تضر بشرف الفرد وكرامته»، تساوي جرائم تشجيع الإرهاب أو جرائم الصراع العرقي، ولم يكتف التشريع بإيقاع العقوبات المدنية على أصحاب التشهير، بل سمح للحكومة بمنع بث الأخبار المسيئة في وكالات الأنباء. وبعد أسبوع ندد أصحاب بوتين بالمقال الذي تناول حالة زواجه، وأقر مشروع القانون بقراءته الأولى بـ 399 صوتًا، وتجرأ نائب واحد فقط على التصويت ضده. مع صدور التشريع بصيغته النهائية انتخِب ميدفيديف رئيسًا للبلاد، وفي واحدة من أولى إشارات محاولة إظهار درجة من الاستقلال، وربما رسم مسار جديد، اعترض عليه في أول فيتو له.